أثر الدستور العثماني وخلع السلطان عبدالحميد في الشعر العراقي

الدكتور رؤف الواعظ
مدرس في قسم اللغة العربية

لم يكن السلطان عبدالحميد قد تسلّم صولجان الحكم في ظروف طبيعية ، بل تسلمه بعد حادثتين كانت لهما ، فيما يبدو ، اعظم الاثر في نفسه وتفكيره • الحادثة الاولى كانت خلع السلطان عبدالعزيز ، حيث تمكن مدحت باشا بالتعاون مع لفيف من اصدقائه واتباعه من أن يخلع هذا السلطان ، ويناط بالعرش الى السلطان مراد الخامس ابن عبدالمجيد وابن أخي عبدالعزيز • وكان هذا مشهورا بادمانه على شرب الخمر ، فاصبح مضطرب العقل ، قلق النفس ، حتى صار وجوده خطرا على المملكة العثمانية • فعزل هو الآخر عن العرش ، وكانت هذه هي الحادثة الاخرى ، حيث اعقبه أخوه عبدالحميد الثاني وتسلم الملك في آب عام ١٨٧٦ •

وكما قلت ، فقد كان لهاتين الحادثتين أكبر الاثر في السلطان عبدالحميد • اذ جعلتاه خائفا على نفسه ، حذرا من أن يصيبه نفس ما أصاب هذين السلطانين • ومن أجل هذا أذعن بادىء ذي بدء لارادة مدحت وصحبه الاحرار فأعلن دستوره الاول في سنة ١٨٧٦ ، كما منح رعاياه برلمانا على النسق الاوربي ، تتجسد فيه أماني الشعوب العثمانية وآمالها في الحرية والعدالة والمساواة • وبذلك اصبحت سلطات هذا السلطان مقيدة ومشروطة بقيود وحدود يقررها الدستور ، ويقرها البرلمان •

وحينما شعر السلطان بأنه اضحى قويا مع مرور الايام ، أمر بحل

البرلمان الى أجل غير مسمى ، وعلّق الدستور وان لم يلغه الغاء رسميا ، كما لاحق مدحت باشا واتباعه ، وأمر بنفي البارزين من اعضاء هذا المجلس ، وكانت حجته في ذلك ان هذا المجلس لم يتخذ قرارات ذات اهمية في النواحي السياسية والاجتماعية ، وانما صرف كل جهده في موضوع انشاء خطوط الترام في بغداد[1] .

في حين ان المنازعات الشخصية دبت بين أعضائه واخذوا يوجهون جهودهم بعضهم ضد بعض ولذلك اغتنم انشغال الدولة بالحرب مع روسيا (٢٤ نيسان ١٨٧٧) فيسرت له تعطيل هذا البرلمان .

وهكذا ورث هذا السلطان فيما ورث ملكا مهزوزا ، يسوده الاضطراب ويعمه الفساد . والظاهر انه حاول جاهدا ان يصلح ما افسده الدهر ، كما حاول ان ينهض بامبراطوريته المتداعية ويبعثها من جديد ، ويصون عقدها من الانفراط[2] . الا أن الاصلاحات التي قام بها عبدالحميد ، أو تلك التي حاول القيام بها ، كانت تجري بين فترات متباعدة مما اكسبها جانب الضعف بالنسبة الى قوة عوامل الفساد والتخريب التي ما انفكت تنخر في جسم الامبراطورية العثمانية . وبالاضافة الى هذا فقد واجهته مصاعب جمة برزت من خلال تآمر الدول الاوربية على مملكته الواسعة حيث كان لها أعظم الاثر في حكمه ومركزه ، اذ اظهرته امام الرأي العام العالمي وامام رعاياه في صورة قاتمة مجللة بالضعف والانحلال . فلقد استولت النمسا على البوسنه والهرسك ، واحتلت روسيا مقاطعة القارص وباطوم وأردهان ، وسطت اليونان على تساليا ، كما انزلت بريطانيا جيوشها في قبرص ومصر فسيطرت عليهما ، واستقلت كل من رومانيا والصرب والجبل الاسود وبلغاريا وكريت ، وتدفق الجنود الفرنسيون على تونس فطردوا منها العثمانيين[3] .

وهكذا أخذت الدولة العثمانية تنحدر انحدارا سريعا نحو التفسخ

والانحلال ، حتى شمل ذاك التفسخ وهذا الانحلال كل مرافق الدولة ، واصبحت فى حالة يرثى لها من الانحطاط والتقهقر • وسرعان ما ظهرت موجات من التذمر والشكوى قوية عارمة بين أبناء الامبراطورية العثمانية ورعاياها ، داعية الى اصلاح اوضاع البلاد والنهوض بها من كبوتها التى صارت اليها • بيد أن هذه الصيحات المخلصة لم تجد آذانا صاغية فى رحاب قصر السلطان عبدالحميد ، بل مضى يضطهد اصحابها ، ويبعث بالجواسيس هنا وهناك لكى يسترقوا السمع وينقلوا الاخبار اليه والى حاشيته •

ولعلنا نستطيع ان نقول بغير تجاوز ان عوامل الضعف غالبا ما تكون سببا قويا فى التظاهر بالقوة والجبروت ، ولذلك ، حين أحس السلطان بضعفه تظاهر بمثل هذه القوة ، كما جعله الصلف والغرور أكثر جبروتا وطغيانا ، ولهذا اخذ يحكم البلاد حكما استبداديا مطلقا ، متصورا نفسه انه ظل الله على الارض • واذا هو يتمادى فى غيه هذا وطفق يقضى على كل من تسول له نفسه مواجهة ظلمه واستبداده •

بيد أن ذلك كله لم يجده نفعا ، لان هؤلاء الاحرار كانوا قد تشبعوا بمبادى الثورة الفرنسية وتعاليم جان جاك روسو وفولتير ، فتولدت فى نفوسهم حركات تحررية تنادى بوجوب اصلاح الامبراطورية حسب الشعارات المعروفة (العدل ـ الحرية ـ المساواة) • فتألفت جمعيات سرية فى داخل البلاد العثمانية وجمعيات علنية فى خارجها ، تضم الساخطين على سياسة عبدالحميد وتعسفه •

وقد عقدت الجمعيات التى تألفت فى خارج البلاد مؤتمرين فى مدينة باريس ، الاول سنة ١٩٠٢ والثانى سنة ١٩٠٧ ، واشترك فى هذين المؤتمرين ممثلون عن بعض الشعوب المسيحية التابعة للدولة العثمانية ايضا• وكان مما قرره المؤتمر الاخير :ـ

أ ـ اجبار السلطان عبدالحميد على ترك العرش .

ب ـ تبديل الادارة الحاضرة من اساسها .

جـ ـ تأسيس أصول المشروطية والمشورة .

ثم حصل اتصال بين الشبان الذين يعملون للحركة الوطنية فى استامبول ، وبين تلك الجمعيات التى كانت تعمل فى باريس ، وتقرر بعد ذلك ان تعمل الجماعتان معا ، وان تسمى باسم « جمعية الاتحاد والترقى العثمانية » .

وقد وفقت هذه الجمعية بعد جهود طويلة الى تحقيق غايتها الاساسية باعلان الدستور ، وبخلع عبدالحميد(٤) .

ولقد كانت الشرارة الاولى التى اندلعت لاجبار السلطان عبدالحميد على اعلان الدستور مرة أخرى ودعوة المجلس النيابى حينما انطلق أنور ونيازى مع وحدات الجيش التى يتولان قيادتها الى استامبول فى ٢٣ تموز عام ١٩٠٨ ، فقبضا على الوزراء ورجال الدولة والمتنفذين ، ولم يسع عبدالحميد حينئذ الا الرضوخ ، فأمر بتشكيل وزارة جديدة برئاسة كامل باشا ، واعادة الدستور والحياة النيابية(٥) .

وما ان اعلن عن ميلاد هذا الدستور فى يوم ٢٤ تموز حتى انطلقت العواطف من اسارها ، فسرت هائجة مائجة تحدوها الآمال الطوال ، والامانى العراض ، بانبثاق عهد جديد حري بأن يكفل للناس هذه الامانى والآمال التى طالما رعوعها بافئدتهم ، وحدوها بعواطفهم ، وتغنوا بها فى سرائرهم . وكيف لا تهتاج هذه النفوس وكانت من قبل تخشى عاديات الزمن ، وتخاف من مغبة المصير . أفلم يكن هذا الدستور كفيلا بان يحقق لهؤلاء الناس أمنهم وحريتهم ، ويجعلهم يعيشون فى ظلاله أخوة متساوين فى الحقوق والواجبات !! .

يقول الاستاذ أنيس المقدسي متحدثا عن أثر اعـــلان الدستور فـــى نفوس العثمانيين فى كتابـــه القيم « الاتجاهات الادبيـــة فى العالم العربى الحديث » ما يلي : (وباعلان الدستور سرت فى نفوس العثمانيين عموما ، وابناء العربيةخصوصا نشوة حبور لم يعهد لها مثيل • فعقدوا الحفلات الباهرة فى الوطن وفى المهاجر ، وانبرى خطباؤهم وشعراؤهم يشيدون بحسنات الانقلاب وأعمال القائمين به • ولا نبالغ اذا قلنا انه مـا من حدث حرك الاقلام العربية كهذا الحدث العظيم ، فقولنا قـول من شـهد بعينـه تلك الحال ، وعرف باختباره شعور الناس ، وشاركهم في غبطتهـم العـامـة وآمالهم الواسعة)[٦] •

والاب لويس شيخـو ، هو الآخر ، يصـف لنـا الانعكاسات التي ظهرت على أثر اعلان الدستور فيقول : (أعلن الدستور العثماني بعـد فوز الحزب العسكري فى الاستانة فى ٢٤ تموز سنة ١٩٠٨ ، فكان لهذا النبأ فرح شمل عموم الرعايا فى تركيا ، واستبشر به الجميع خيرا ، وشعر الناس كأن حملا باهظا سقط من كواهلهم ، أو حلت عنهم ربقة الاستعباد، وكسرت أغلال أسرهم ، فانطلقت الالسنة بالمديح ، وشحذت الاذهـــان بالقريض ، فضاقت صفحات الجرائد عن استيعاب ما تنتج به القرائح من الفصول الشائقة ، والقصائد الرنانة الرائقة)[٧] •

أما العراق فقد جرى فيه ما جرى فى غيره من الاقطـار العثمانيـة الاخرى • فقد عمت الناس نشوى اعلان الدستور ، واسكرتهم تباشير الغد الجديد ، بعد أن وردت البرقيات الى العراق تزف مولد هـذا الدستور ، وكان ذلك فى عهد الوالي حازم بك •

يقول صاحب كتاب مختصر تاريخ بغداد : (فلاقى البغداديون ذلك الامر بالفرح ، وأقاموا مظاهرات السرور)[٨] •

وقد رسم لنا الزهاوى صورة لبغداد تعد مثالا صادقا لجميع المدن العثمانية ، قـــال :ـ

وقفت والعين تبكي من مسرتها أمام قوم من الافراح عجـــاج
أمـام بحر من الافكار مضطرب أمام جيش من الاصوات رجراج
ان الرعية ان هاجت عواطفهـا كالبحر يضرب أمواجا بأمواج[٩]

وتسابق الشعراء فى اظهار فرحهم وحبورهم بهذا المولود الجديد ، فحضنوه بشعرهم ، وأنشدوا له أناشيد المودة والحب ، وهزجوا أهازيج المديح والثناء ، شاكين اليه ، فى الوقت نفسه ، ما نابهم من ضر وما نزل بهـم من خطب في عهد الظلم والاستبداد • حتى اولئك الشعراء الذين كانوا قد مدحوا عبدالحميد وأشادوا بفضله وتغنوا بعدله ، عادوا فرحين مستبشرين بهذا الدستور • ذلك انهم لما كانوا قد اطمأنوا الى ان عهد الظلم قد مضى وانقضى ، وان رجال الاتحاد والترقي قـد سيطروا عـلى البـلاد وبدأوا يحكمونها بيد من حديد ، لم يترددوا فى اظهار عواطفهـم ازاء هذا الدستور ، فكأن عهد عبدالحميد الذى تمادوا فى وصف فضائله من قبل ، لم يكن فى يوم من الايام رحمة كله ، أو عدلا كله • أفلا يعني الانسياق وراء هذا الدستور وتأييد هذه الحركة الانقلابية اعترافا بمظالم عبدالحميد ، وتأكيدا على جوره واستبداده ؟!

فهذا هو الشاعر أبو المحاسن الذى كان قد مدح السلطان من قبل عن رضى وقناعة ، نراه يسـرع فيلقى فى أول احتفـال اقيم فى كربلاء بمناسبة عيد الحرية واعلان الدستور قصيدتـه (عاشر تموز)[١٠] ، وفيها يشيد بهذا الدستور ، الذى أعلن البشائر الى الناس وأسـفـر عن الاماني العذاب فيقول :ـ

أهلا بيوم جرى بالسعد طائره وأسـفرت بالمنى منـه بشائـره

تالت به الملة الغراء ما طلبت فكل حر أريب قرّ ناظره
تالت بعاشر تموز مطالبها ألا فبورك من تموز عاشره
شموس عدل تجلت فيه صادعة ليلا من الجور أردتنا دياجره
يوم غدا في جبين الدهر غرته فالدهر طلق منير الوجه زاهره
يوم به نهض الاسلام واتحدت شعوبه وصفت طبعا عناصره

ثم يعرج الشاعر على اولئك الاحرار الذين كان لهم شرف زفاف هذا الدستور فيثني عليهم ، ويبرز دورهم في تبديد تلك الظلمات الحالكات عن جبين هذه الدولة العظيمة التي ما فتئت تتغنى بعظمتها وجلالها ، وتطاول بشموخها كل الصروح والتيجان • ويصدح الشاعر فرحا بذلك فيقول :ـ

يوم به ورد الأحرار عن ظمأ وردا من الرشد قد طابت مصادره
أراك تجمد عن علم لنا شرفا طلوع عينك في الدنيا مآثره
أوج الرقي قديما كان منزلنا ورب منزل أنس حنّ ذاكره
قد كان فى الفلك الاعلى لنا وطن تحكي مساعينا فيه زواهره

واذا بحثنا عن شاعرنا الزهاوى ، فلا نجد اسرع منه وهو يعدو بين الصفوف حتى يأخذ الصدارة منها ليقف معتدا بنفسه ، شامخا برأيه ، ممتلئا قلبه بالزهو والانتصار • واذا هو ينشدنا من القريض ما تطرب له النفوس ، وترقص القلوب ، ويملأ الجوانح بالآمال الباسمات • وهل هناك أحق منه ومن زميليه الرصافي والكاظمي بالتغني بميلاد هذا اليوم الباسم الذى مسح عن القلوب جراحها بعد أن ظلت تنزف دما طوال ما رزئت به البلاد من مصائب وخطايا • أفلم يكن هذا العهد ، هو نفس العهد الذى ناضلوا من أجله ، وعرضوا ارواحهم للمهالك والمخاطر فى سبيله ، بل نال هو بالذات النكال على يدى عبدالحميد •

أما وقد حل هذا اليوم الموعود ، أفلا يبتهج بـه هؤلاء الشعراء أكثر من غيرهم ، ويكون نصيبهم من اتراحه اعظم من نصيب الآخرين •

ولهذا جاء شعرهم معبرا عن هذه الامانى خير تعبير • فأنت تجد فيه توهج العواطف ،و حرارة الصدق ، وشرف المقصد ، ولسنا نحس فـى قصائدهم ما يذكرنا بشعراء المناسبات الذين اعتادوا الزلفى بالفضفاض من كذب القول ورياثه • ومن هنا كان شعرهم زاخرا بالعواطف الجياشة ، صادرا عن اعماق القلب ، لا جاريا على اللسان كما يجرى الماء فـوق الارض المستوية ، بل هم شقوا لروافدهم الهضاب والجبال ، فانحدر ماؤهم كأنه السيل المتدفق يعلو صوته فوق الاصوات ، ويطغى هديره على كل المياه •

وهكذا هام هؤلاء فى حب الدستور ، وخطبوا وده • فالزهـاوى يشبهه بفتاة شابة جميلة ، يتغزل بها ، ويتغنى بمفاتنها وهى تخطر فـى مطارف الحرية ، فيجرى وراءها كما يجرى العاشق المستهام ، اذ لولاهـا لما عرف للحياة طعما ، ولا للمغانى مذاقا • فيقول فى قصيدته (التعاون)(١١) التى تلاها بعد اعلان الدستور يوم انعقاد جمعية الاتحاد والترقـى فـى بغـداد :ـ

خود العدالة يا قلبي السعيد وفت ... بوعدهـا وهي كل السؤل والحاج
أشر عليّ وقل من أين ألثمهـا ... أمن ترائبهـا أم طرفهـا الساجي
هي الحبيبة تحمي عز ساحتهـا ... من التعرض أيدى حزبهـا الناجي
من كل أروع لا يخشى منيتـه ... وخائض في غمـار الـروع ولاّج
لولا اعتصامي بحبل من حمايتهـا ... لطـال في الذل تأويبي وادلاجي
ملتفة الجسم في ثـوب يجللهـا ... وذلك الثـوب من وشي وديبـاج
مشت تمايل والاحرار تتبعهـا ... الى الجنينـة فوجا بعـد أفـواج

ويطلب الزهاوى الى القـوم ان يمسكوا بعواطفهم قليـلا ، ويكبحوا

جماح هذه الانفعالات الثرة ، لكي يذكرهم بما يلزمهم فى هـذه الفترة للنهوض بالبلاد ، والعمل من أجل رفعتها وكرامتهـا • والعلم هو أول ما أشار اليه ، فهو نبراس الحقيقة ، وعنوان التقدم وان هذه الامة لا تصلح الا به ، ولذلك يقول :ـ

العلم يا ناس لا تنسوا تدراسه فانه للمعالي خير معراج
لا أطفأ الله نوراً كان منتميا الى سراج من العرفان وهاج

ويؤكد الزهاوى ان ذلك الزمان الذى كان قد خيم بظلمه وجوره على الناس قد انكفأ على وجهه وولى الى غير رجعة ، وانالنفوس التي ظلت حبيسة الخوف والذعر قد انفكت اليوم من إسارها وأضحت طليقة ترفل في أثواب العز الضافية ، وترنم بالحان الحرية والعدالة • وللناس ان يبتهجوا بهذا الدستور ايما ابتهاج لانه رمز التقدم ورمز السعادة :ـ

والعدل حيطة من قد كان ذا سعة وعون كل فقير الحال محتاج
والظلم مفسدة ما حل فى بلد الا وأزعج فيه أى ازعاج
قد أعلنت للورى حرية فمضى زمان سخرة ذى أمر وقرباج
وأطلقت كل نفس من أسارتها هذا الذى كان يرجو نيله الراجي
فقال في وصفها شعرى يؤرخها تحرر الناس من أسر واحواج

ومن الغريب ان هذه القصيدة جاءت خلوا من التعرض بعبد الحميد والتنديد بسياسته ، فلعل الزهاوى كان قد شعر بأن هذا اليوم هو يوم عيد حقا لابد ان تبتهج فيه النفوس وتطرب له القلوب ، فلا داعي لان يحيط هذه المشاهد السعيدة باطار اسود ينتقص من جمالها وروعتها •

ولكنه في قصيدته (عيد ومأتم)[١٢] التي نظمها بعد مرور عدة أيام من القصيدة السابقة بمناسبة اعلان هذا الدستور وموت صديقه ناظر الحربية رجب باشا ، وتلاها فى بغداد على جمهور كبير من الناس ،

تعرض لمساوىء عبدالحميد ، وأشار الى تلك الايام السود التى عمت الخافقين وحجبت نور الحقيقة عن الكون ، ولكنه عمد الى عدم ذكر السلطان نفسه فقال : ـ

مرت علينا ليال قد حكت حقبا ... بعداً لها من ليال هن كالحقب
سود غرابيب ما فى جوها قمر ... ولا على أفقها لمع من الشهب
لها سماء تهاب العين رؤيتها ... لما على وجهها الداجي من السحب
ما كنت أحسبها واليأس معذرة ... تبدي صباحاً ينير الكون في العقب
أبدت نعم لي فجراً صادقا سطعت ... أنواره ليس بالموهوم والكذب
امي بما نلت من حرية فرحت ... وانها وطني المحبوب إي وأبي

وفى هذه القصيدة يعود الزهاوي مرة اخرى الى التغني بهذه الخود الجميلة التى كان يسميها « ليلى » ويقصد بها « العدل » أحيانا ، فيشيد بجمالها ويطلب ودها فيقول :ـ

يا أيها الناس ان العدل غانية ... محبوبة الطرف والخدين واللبب
فى نحرها ماسة كالنجم ساطعة ... وفوق مفرقها تاج من الذهب
تالله قد سلبت لبي غداة بدت ... هيفاء ترفل في أثوابها القشب
أخال ليلى، وليلى العدل، قد رضيت ... عن المحبين بعد السخط والغضب
أملّت بالأمس عن بعد زيارتها ... فواصلت فوق ما أملت عن كثب
أظنها رق منها القلب فانعطفت ... لما رأت ما لدمعي أمس من صبب
ان لم يكن دمع عيني أمس رققها ... فان زورتها من أعجب العجب
ماذا الذى جعل الحسناء ترحمنا ... لابد من سبب لابد من سبب
بلى لقد رق منها القلب حين رأت ... عيني تجود بقاني دمعها السرب
جودي بوصلك ليلى يا حبيبتنا ... جودي على كل مشتاق ومكتئب
يكفي الذى فيك كابدناه من ألم ... يكفي الذي فيك قاسيناه من نصب

بما بعينيك من سحر ومن دعج وما بثغرك من ظلم ومن شنب
لأنت أحسن ما شاهدت من حسن وأنت أكبر ما منيت من أرب

ولم ينس الشاعر ، وهو فى زحمة تلك العواطف ، وخضم هذه الموجات المتدافعة من الانفعالات ، حالة العراق خاصة وحالة العرب عامة ، وما كانا فيه من بؤس وشقاء ، بعد ان كانت رايتهم ترفرف خفاقة فوق غرة الدنيا ، صداحة بالعدل والرحمة ، فيستغرق فى التأمل والتفكير ، ويتساءل هل سيعود للعروبة ذلك المجد الأثيل ، وهل ستعود لها بسمتها وفرحتها من خلال هذه الاماني التى زف بشراها هذا الدستور ، بعد طول خمود وهجود : ـ

أو هل يعود الى العرو بة ذلك المجد الأثيل
مجد تجر له على مجد تقدمه الذيول
مجد بدا كالنجم يلمع ـــــ ثم أخفاه الأفول
مجد تزول الراسيات ت وذكره ما إن يزول
مجد له فى أبطن التا ريخ قد كتبت فصول
مجد بناه الله ضخما ثم أيده الرسول

ويلقي تبعة هذا العز الضافي على أكتاف الدستور ، فهو وحده الذى يستطيع أن يحقق للعرب سابق مجدهم وعزهم فيقول :ـ

الشعب بعد الله يا دستور أنت به كفيل
تمشي به الآمال والآمال مركبها ذلول
ان الحياة اذا انتفت آمالها لها عبء ثقيل
واذا أرادت أمة رشداً فما شيء يحول(١٣)

ويسير الرصافي كذلك فى أول هذا الركب فيحدو مع الحادين :

أكرم بتموز شهراً إن عاشره قد كان للشرق تكريماً وتعزيزا

شهر به الناس قد أضحت محررة ... من رق من كان يقفو إثر جنكيزا
سل أهل باريز عن تموز تلق لهم ... يوماً به كان مشهوداً لباريزا
كانت لهم فيه لما ثار ثائرهم ... بسالة هدت البستيل مبزوزا
وأن تموز شهر قام فيه لنا ... على البقاع لواء العز مركوزا
في شهر تموز صادفنا لما وعدت ... بيض الصوارم بالدستور تنجيزا
هي المساواة عمتنا فما تركت ... فضلا لبعض على بعض وتمييزا
أمست لنا قسمة بالملك عادلة ... حكما وكانت على علاتها ضيزى (١٤)

على أن الرصافي لم يقف عند هذا الحد من بيان فرحته بهذا الشهر المبارك ، بل استمر في التنديد بعبدالحميد والنيل منه • وما انفك يصفه بأنه الظالم الطاغي ، ويصف حكمه بالظلم والاستبداد ، ويسمه بأنه شبيه بحكم جنكيزخان الذى رق الناس واستعبدهم :ـ

قمنا على الملك الجبار نفرعه ... بالسيف منصلتا والرمح مهزوزا
حتى تركناه في هيجاء معضلة ... ألقت ضراماً على الطاغين مأزوزا
إنا لنأبى على الطاغي تهضمنا ... حتى نهوز فى الهيجاء تهويزا
ونأكل الموت دون العز نمضغه ... كمضغنا التمر برنياً وسهريزا
لاعاش من لايخوض الموت مرتضياً ... بقاءه بعصيّ الذل موكوزا

وكان الرصافي يرى ان الشعب الظلوم المستعبد ، هو الذى أجبر السلطان عبدالحميد على اعلانه بعد ثورته عليه • وهنا تختلف نظرته الى الدستور عن نظرة الشعراء الآخرين اليه ، وبخاصة بعض شعراء مصر مثل أحمد شوقي وحافظ ابراهيم وغيرهما • اذ كان هؤلاء الشعراء يقرنون اعلان الدستور العثماني بالثناء على عبدالحميد ، داعين الى الالتفاف حول عرشه ، طالبين حمايته ، على اعتبار أنه هو الذى أعلنه ومنحه للناس ، فكأنه فضل منه وهبة • ولهذا جاءت قصائدهم (الدستورية) كلها فى مدح السلطان والثناء عليه والاشادة بفضله (١٥) •

ومن ثم ...

فان الرصافى وان استبشر بالدستور فانه لم يغتر به كثيرا . لما كان يشعر برغبة عبدالحميد على الاستمرار في سياسته التعسفية الرجعية .

ولهذا نادى بسقوطه ...

ان الرصافي هو الشاعر الوحيد الذى طالب بخلع السلطان بعد اعلان الدستور مباشرة[١٦] . بل ان الرصافي كان قد طالب بخلعه قبل اعلان الدستور ، وأعلن رأيه هذا صراحة فى قصيدته المشهورة (رقية الصريع)[١٧] ، والتي نادى فيها بقيام حكم جمهوري وسقوط الملكية .

يقول الرصافى فى هذه القصيدة :

أبت السياسة أن تدوم حكومة ... خصت برأى مقدس من لم يسأل
مثل الحكومة تستبد بحكمها ... مثل البناء على نقا متهيل
يا أمة رقدت فطال رقادها ... هبي وفي أمر الملوك تأملي
أيكون ظل الله تارك حكمه الـ ... منصوص فى آى الكتاب المنزل
أم هل يكون خليفة لرسوله ... من حاد عن هدي النبي المرسل
تلك الحماقة لا حماقة مثلها ... حمقا فهل هو من صحيح تعقل
ان الحكومة وهي جمهورية ... كشفت عماية قلب كل مضلل

ذلك ان الرصافي ، بعد اعلان الدستور ، لم يكن فى قصائده الدستورية سريعا الى الصفح عن مساوىء عبدالحميد ، بل ظل يندد به ، ويعدد مساوئه ما وسعه الى ذلك من سبيل ، ويدعو الى خلعه ، حتى تم له ذلك ، وهذا غاية ما تمناه الرصافي وابتغاه .

ولقد مس هذا الدستور أوتار قلب الشاعر محمد رضا الشبيبي . فنراه يلبي نداء الحرية ، ويستجيب لصرخة الامل العريض ، فيعبر عن عواطفه الجياشة بقصيدة واحدة عنوانها (الحرية والشعر)[١٨] ، وهي

من أوائل شعره ، وقد صور فيها مشاعر الناس ، وما أصابهم من فرح وسرور يوم أن تلقوا نبأ اعلان الدستور فيعلن ذلك قائلا :ـ

ان الحكومـــة وهي جمهوريـــة ... كشـفت عمـايـة قلب كل مضلل
طـرقت وضاحيـة النهـار دجنـة ... والحـر عبـد والدنى أمـــلاك
فأضـاء عنها البرق ينبض عرقـه ... سـلـكا عليه حلى السنا أسـلاك
ضحـك المحيط لوقعهـا وتبسـمت ... عـن ثغـر أنجمهـا لهـا الافـلاك
أتساكهـا الجنف المطـاع وأهلـه ... فمضوا وأحيا ذكرهـا الاتـراك
طبعت على صحف الطبيعـة أحرفاً ... لا تنمحي أو ينمحـي الادراك
طلعت على سـلم وكم لـم تتفـق ... والضـرب طلـق والطعـان دراك

ولقد جاءت هـذه القصيدة خلوا من الاشـادة بدور الجيش الذى أرغم السلطان على أعلان الدستور ، وان كنا لا نعدم الاشـارة اليهـم فى بيته الرابع منها .

كما جاءت خلوا من الهجوم عـلى عبدالحميد والتنديـد بسياستـه التعسفية . أما بعد خلعه فلم نقع فى ديوانـه على شعر نظمـه فى هـذه المناسبة الخطيرة .

زال اذن ذلك الطغيان والجبروت ، ومضى الكابوس الذى كان جاثماً على الصدور ، مخيماً على النفوس . وبدأت الآمال تتعلق باذيال هـذه الشعارات الجديدة (العدالة ـ الحرية ـ المساواة) التي كانت أحلامها تراود اذهان الاحرار . وما صدقوا أنها اليوم ماثلة أمام عيونهم . ولكنها الاماني تغرس فى النفوس بذورها لكي تصبح فى يوم من الايام حقائق ناصعـة لا جدال فيها . ويومئذ تحتضنها الأفئدة بالتفاؤل ، وترعى أنوارها المشعة بالعطف والحنان .

على أن ذلك الماضى الذى كان صفحة من صفحات الذل والعبودية ،

قد ترك السلطنة العثمانية سقيمة النفس ، محطمة الاوصال ، تشكو الى بارئها من ظلم عبد الحميد وفساده • ولهذا تطلع الشعراء الى الغد المشرق السعيد ، ودعوا الشعوب العثمانية المتفيئة تحت ظلال العلم العثماني التي أدركها الويل والثبور من عمايته ، أن يبادروا سريعا الى الأخذ بكل أسباب اليقظة والنهوض • وكان العلم هو أول ما دعوا اليه لأنه عنوان رقي الامة ، ورمز عزها ومجدها • وهم فى هـذا كله كانوا ينظـرون الى الغـرب ، ويتمنون أن تحتذى الشعوب الاسلامية على مثاله ، علماً بأن أول هـذا الفضل كان لنا نحن المسلمين •

من ذلك قول الشاعر محمد حسن الشبيبي فى قصيدته (ايقـاظ النائم)[١٩] التي جاء فيها ، بعد أن بارك هذه الحركة الدستورية وأيـد القائمين بها :

فقـل لأبناء هـذا الشرق قاطبـة ... هبوا فان أسـاس المكرمـات نبي
واستمسكوا بحبال العلم واتبعـوا ... آثـاره ليـزول القبـح بالحسـن
مـا بالكم قـد طويتم عن رقيكـم ... كشحاً وما أنهضتكم غـيرة الوطن
جدوا بني الشرق للعلياء واجتهدوا ... فجوهر الفضل لا يشرى بلا ثمن

الى أن يقول : ـ

إيه بني الغرب حزتم كل مكرمة ... كانت لنا دونكم في سـالف الزمن
فالفضـل أولـه فينـا وآخـره ... فيكم وما قـد غرسنا في الانام جني

هذا ما كان من أمر هذا الشعر بعد اعلان الدستور العثماني ، وقبل خلع السلطان عبدالحميد من عرشه • ذلك أن كثيرا من الشعر الدستورى كان قد انطلق سابحا فى رحاب العهد الجديد بعد خلع هذا السلطـان • فمزج في ذلك بين فرحتين ، فرحة بالدستور ، وفرحة بخلعه •

ومن المعلوم أن عزل عبدالحميد كان الهدف الذى عمل رجال جمعية

الاتحاد والترقي عدة سنوات لتحقيقه ،وعدّ دائما البلسم الذى لو تم لشفى مشاكل الامبراطورية العثمانية المحتضرة .

ولكن عبدالحميد كان قد بقي على العرش بعد حركتهم الاولى التى فرضوا بموجبها هذا الدستور . ذلك ان الاتحاديين ، فيما يبدو ، لم يشعروا يومئذ بقوة كافية لعزله . كما ان السلطان هدأ هياجهم، الى حد ما ، بالاذعان لطلباتهم باعادة الدستور . يضاف الى ذلك انه بالرغم من السنوات التى أساء فيها الحكم ، فانه كان لا يزال محاطا بتبجيل الاكثرية العظمى الجاهلة من الشعوب العثمانية . ولهذا اتفق رجال تركيا الفتاة على ابقائه على العرش حينما قاموا بحركتهم هذه خوفا من تعريض المكاسب التى جنوها للخسارة باثارة مسألة عزل السلطان فيما لو قرر عبدالحميد اللجوء الى تعصب الشعب التركي ، حيث كان لابد أن يؤدي ذلك الى سفك كثير من الدماء ، وقد تصبح القضية ضدهم . غير أن فشلهم فى عزله لم يعن أن جمعية الاتحاد والترقي قد نسيت سوء حكم عبدالحميد بحال من الاحوال(٢٠) .

بيد أن السلطان الذى قبل أن يكون في جانب هذه الجمعية ، عاد وأخذ يعمل ضدها . فأسس جمعية جديدة تحمل اسم (الجمعية الاسلامية) ، وكان على اتصال بها . وكانت هذه الجمعية التى تحمل الصبغة الدينية في الظاهر ، غرضها الحقيقى مقاومة حركة تركيا الفتاة(٢١) .

وفى الوقت نفسه ظلت عناصر الشغب والقتل مسيطرة على القسطنطينية والمقاطعات الاخرى ، وتعمل جاهدة على خلق الفوضى والاضطراب ما وسعها الى ذلك من سبيل . فكان من نتيجة هذا كله أن قوى الرأي بوجوب تنحيته ، وهكذا كان .. ونفي السلطان عبدالحميد الى سلانيك ، وأجلسوا أخاه محمد رشاد على العرش بدلا منه .

ولقد كان لنبأ خلع السلطان عبدالحميد رنّة شبيهة بتلك الرنة التي صاحبت اعلان الدستور ، ان لم تكن أعظم منها وأقوى • اذ سرت فى النفوس موجات من الفرح الطاغي ، ومشت متجاوبة مع صرير الاقلام المعبرة عن انفجار النفوس ، وتهيج العواطف ، واندلاع المشاعر بكل ما اوتيت من قوة وحزم •

ولقد كان الرصافي في الاستانة يوم زحف الجيش من سلانيك متوجها نحوها بقيادة محمود شوكت باشا • وقد وصف لنا فى قصيدته (في سلانيك)[٢٢] مسيرة هذا الجيش وصفا دقيقا لطيفا ، وظل يلاحقه الى أن دخل القسطنطينية • وأوضح الرصافي في هذه القصيدة أن السبب فى هذا الزحف المقدس ، هو قمع الحركة الرجعية التى حدثت في ٣١ مارس ١٩٠٩ فيقول :ـ

لقد سمعوا من الوطن الأنينا ... فضجوا بالبكاء له حنينا
وناداهم لنصرته فقاموا ... جميعاً للدفاع مسلحينا
وثاروا من مرابضهم أسوداً ... بصوت الاتحاد مزمجرينا
•• •• •• •• •• •• •• ••
مشوا والوالدات مشيعات ... خرجن وراءهم والوالدونا
يقلن وهن في فرح بواك ... وهم من حزنهم متبسمونا
على الباغين منتصرين سيروا ... وعودوا للديار مظفرينا
ولا تبقوا الذين قد استبدوا ... ورامـوا كيدنا وتخونونا
فان لم تنقذوا الأوطان منهم ... فلستم يا بنين لنا بنينا
فقد هاجوا على الدستور شراً ... بدار الملك كي يستعبدونا
هم الاشرار باسم الدين قاموا ... فعاثوا في المواطن مفسدينا
فما تركوا من الدستور (شورى) ... ولا أبقوا لنغمته (طنينا)[٢٣]

وهكذا أشار الرصافي الى هذه الفتنة الرجعية التي أشعل اوارها

عبدالحميد ، وأراد بها القضاء على الدستور ومكاسبه • ولقد رأيناه يتطوع بتحريض الجيش على القضاء عليه وتخليص البلاد من شروره وآثامه •

ومن ثم يصف لنا زحف هذا الجيش الى أن دخل القسطنطينية فيقول : ـ

أتينا دار قسطنطين صبحاً ... وقد فتحت لهم فتحاً مبينا
وظل الجيش جيش الله يشفي ... بحد سيوفه الداء الدفينا
فأزهق أنفس الطاغين حتى ... سقاهم من عدالته المنونا
ورد الخائنين الى جزاء ... أحلهم المقابر والسجونا
وحطوا قصر يلدز عن سماء ... له فانحط أسفل سافلينا
وأصح خاشع البنيان يغضى ... عيونا عن تطاوله عمينا
خلا من ساكنيه وحارسيه ... فلم تر فيه من أحد قطينا
هوى عبدالحميد به هويا ... الى درك الملوك الظالمينا
وأنزل عن سرير الملك خلعا ... وأفرد لا نديم ولا قرينا
فسيق الى سلانيك احتباسا ... له كي يستريح بها مصونا
ولكن كيف راحة مستبد ... غدا بديار أحرار سجينا

وفى خاتمة هذه القصيدة يوضح لنا الرصافى سبب خلعه فيقول :

لقد نقض اليمين وخان فيها ... فذاق جزاء من نقض اليمينا
وقد كانت به البلدان تشقى ... شقاء من تجبره مهينا
فكم أذكى بها نيران ظلم ... وكم من أهلها قتل المئينا
وكان يدير من سفه رحاها ... بجعجعة ولم يرها طحينا
وقد كانت به الايام تمضى ... شهورا والشهور مضت سنينا
ولما ضاق صدر الملك يأسا ... وصار يردد الوطن الانينا
أتى الجيش الجليل له مغيثا ... فصدق من بني الوطن الظنونا

القصيدة •••••

وبينما كان الجيش منشغلا بالقضاء على هذه الفتنة الرجعية ، وطرد السلطان عبدالحميد من الحكم ، وتسفيره مخفورا الى سلانيك حيث اجبر على الاقامة فيها ، يقف الرصافي على مشارف قصر «يلدز» العظيم ، فيستغرق في التأمل ، ويتعجب من تقلبات الزمن ، كيف يرفع بعض الناس الى ذرا هذه الحياة ، ثم يعود فيلقي بهم الى الدرك الاسفل منها • وهذا هو شأن الظالمين الذين يعتقدون انهم بمنجاة من العقاب ، وما دروا أن الزمان لهم بالمرصاد ، وأنه قادر على هلاكهم ، مثلما هو قادر على الاخذ بهم الى سماء المعالي •

ولهذا يلتفت الرصافي الى هذا القصر فيخاطبه في قصيدته (وقفة عند يلدز)[٢٤] كي يتلمس بعض الأجوبة عن أسئلته الحيرى • ولكن هذه التساؤلات كانت من قبيل الفضول ، ذلك أن الرصافي كان يعرف هذه الاجوبة من قبل أن يسأل عنها • أفلم يكن صمت هذا القصر الشاهق مبعثه طرد سيده منه ؟! ثم ألم تكن تلك المآسي والمظالم هي بعينها التي كانت سببا في القضاء على رب هذا القصر وخلعه من عرشه ليستقر وحيدا ، يجتر الذكريات ، ويا لها من ذكريات ! ان الرصافي كان يعرف هذه الاجوبة ولهذا يقول : ـ

ليت شعرى والصمت فيك عميق ... ذاكر أنت عهدهم أم سال
ما تداعى منك البناء ولكن ... قد تداعى بناء تلك المعالى
كنت كل البلاد في الطول والعر ... ض وكل العباد في الاعمال
كنت مأوى العلى مثار الدنايا ... مهبط العز مصدر الاذلال
كنت جبا وأى جب عميق ... بالعاً للنفوس والاموال
مورد الخائنين كنت وكانت ... منك تدلي مطامع العمال
قصر عبدالحميد أنت ولكن ... أين يا قصر أين عرش الجلال
أين خاقانك الذى كان يدعى ... قاسم الرزق باعث الآجال

ما أرى اليوم ذلك المجد الا كخيال يمر بعد خيال
هل وقوفي على مبانيك الا كوقوفي على الطلول البوالى

ويستمر الرصافى في قوله هذا فكأنه يجيب على هذه الأسئلة : ـ

قد تخونتنا ثلاثين عاما جئت فيها لنا بكل محال
تلك أعوام رفعة للأداني تلك أعوام حطة للأعالى
تلك فيما جرت نقطة سو داء تبقى بجبهة الاجيال
يثب العدل طافراً كلما مر عليها مشمر الاذيال
ملأت خطة الزمان شنارا فأبتها كل العصور الخوالى
وكأني أرى اضطراب نفوس كنت تغتالها وأى اغتيال
أسمع الآن فيك ما كان يعلو من أنين لها ومن إعوال

ويقول أيضا : ـ

كيف تنسى تلك الخطوب اللواتى لقحت منك حربها عن حيال
يوم كنا وكان للجهل حكم خاذل كل عالم مفضال
آمر من عتوه كل آمر يغرس البغض فى قلوب الرجال
أفأصبحت نادما ايها القصر تبالي بالقوم أم لا تبالي
لم تفدك الندامة اليوم شيئا قضي الأمر فاصطبر باحتمال

القصيدة .....

ولقد سارع أبو المحاسن الى تأييد خلع السلطان عبدالحميد ، فنظم قصيدة بعنوان (غادة كربلاء)[٢٥] ، ذكر فيها الحملة التي قادها زعماء الجيش الى الاستانة ، وصور ما اعتراه من سرور وحبور أثر سماعه بخلع عبدالحميد ، وكيف سكرت نفسه بالاماني العذاب ، وانتشت روحه ، وغنت للدنيا جوارحه بهذا الحديث العظيم : ـ

أضاءت سعود الملك جالية زهرا وراقت رياض من العيش جانية زهرا

وجاءت لنا بيض الأمانى بانعم ... لبسنا بلا خلع مطارفها خضرا
فبات يعاطينا الهنا أكؤسا بها ... سكرنا ولم نشرب سلافا ولا خمرا
شربنا سلاف الروح لا الراح فاغتدت ... بها الروح نشوى فهى مرتاحة بشرا
الا إن ثغر الدهر أصبح باسما ... الينا فدام الدهر مبتسما ثغرا
واشرقت الدنيا جمالا وبهجة ... ترينا المحيا الطلق والخلق النظرا

وأوضح الشاعر فى قصيدته هذه ما وصلت اليه الدولة من رفعة وكمال ، بعد أن كانت ذليلة مستضعفة بسبب تلك السياسة الغاشمة التي سار عليها عبدالحميد . ولكن هذه الشعوب التى تعاضدت وتكاتفت وأجمعت أمرها على القضاء على الباطل ، قد نالت اليوم أسمى آيات العز والفخار ، وصارت تطاول السماء في عظمتها وبأسها ، والى هذا يشير :

تقلد قانون العدالة أمرنا ... وأجدر به أن يسلك النهى والأمرا
وكائن ترى فوق البسيطة دولة ... به عظمت شأنا وكانت هى الصغرى
ولا سيما فى أمة قد تعاضدت ... على الحق حتى نالت العز والفخرا
تسامت الى أوج الرقي وطنبت ... بيوت المعالي حيث طالت به النسرا
وقد صبرت دهرا فانجح سعيها ... كذلك من يستصحب الحزم والصبرا
جنوا ثمر العليا حلواً وطالما ... جنوا من تجني من مضى ثمرا امرا
ورب عزيز ذل في الناس قدره ... ورب ذليل عز بين الورى قدرا
فبعداً لأيام تولت ذميمة ... إذا أرخت ساءت أحاديثها ذكرا

على أن الفضل في هذا كله انما يعود الى الضباط الاحرار ، وعلى رأسهم قائدهم محمود شوكت باشا ، الذين أنفوا من هذا العار والشنار ، وأبت نفوسهم ذاك الذل والصغار . ولما لم يعد للصبر منزع ، امتشقوا سيوفهم وشهروها في وجه الطاغية ، وأنزلوه من عرشه الذى كان يستمد منه القوة والجبروت ، واذا هو ضعيف ذليل لا حول له ولا قوة . فيقول : ـ

حقيق بحسن المدح محمود شوكت فأهد له النظم المهذب والنثرا
هو الماجد الحامي حقيقة مجده تضوع مساعيه اذا نشرت نشرا
ولما طغى أمر البغاة وأعلنوا بما قد أسروا من غوايتهم جهرا
رماهم من العزم الشديد بعسكر وقاد إليهم مثله عسكراً مجرا
وقد صدم الثغر المخوف بحملة تهد رواسي الهضب أو تثغر الثغرا
بابطال صدق يقدمون على الردى إذا أحجمت عنه أسود الشرى ذعرا
ولم ينكفيء حتى أذل عزيزهم وحكم فى الهام المهندة البترا

وينتهز الشاعر هذه المناسبة لكي يهنيء السلطان الجديد محمد رشاد الذى ما أن انيطت به الخلافة حتى ترنح عطف الملك منشرح الصدر ، باسم الثغر • ومن ثم يشرع فى مدحه ويعدد فضائله فيقول :ـ

لتهن أمير المؤمنين خلافة تشاد مبانيها على هامة الشعرى
وسلطنة تصفو وتضفوا ظلالها على الأرض حتى تملك البر والبحرا
وأهلا بأيام زواه زواهر تضيء لياليها موسمة غرا
فتجلو علينا تلك شمس سعودها وتجلو علينا هذه قمراً بدرا
باشراق سلطان الرشاد محمد ترنح عطف الملك منشرحاً صدرا
وبالخامس المسعود نيطت خلافة وسلطنة جاءت بشائرها تترى
سعدنا بنعمى أسبغ الله ظلها علينا فجلت أن نقابلها شكرا

ولم يكتف الشاعر بهذا القدر من التعبير عن أحاسيسه ومشاعره ازاء هذا الحدث الخطير • وانما يغتنم ذكرى حلول هذا العيد ، فينشد قصيدة في الاحتفال الذى أقيم بهذه المناسبة بعنوان (نفحة التهاني)[٢٦] ، يعبر فيها من جديد عن شعوره بهذا العيد السعيد ، واذا هو يهتز طرباً بهذه الذكرى العطرة التي أضفت على الكون كثيرا من البهجة والسرور ، فيقول : ـ

عبقت نفحة التهاني الزكية في رياض البشائر المليه

طلع العيد بالسرور عليها ... فهو يجلو الكواكب الدريه
جاءها عيدها السعيد بنعمى ... فهي بالبشر والسرور حريه
أطلقت فيه من إسار وقيد ... واستلذت بنعمة الحريه
وشفت غلة بيوم سقاها ... من رحيق الهنا كؤوسا رويه
واستضاءت بظل عدل ظليل ... في حمى دولة الرشاد العليه
وعلت باتحادها والترقي ... ذروة المجد والمعالي السنيه

وأعظم ما امتاز به هذا العهد الجديد أن المسلمين صاروا سواء تحت راية التوحيد ، وأن المؤمنين أصبحوا أخوة يشد بعضهم بعضا لا فرق بين هذا وذاك ، وأنهم جميعا متساوون في الحقوق والواجبات كما قضت شرعة الاسلام ، وليس ثمة شك في أن هذا الاتحاد بين المسلمين سيكون مدعاة لقوة الدولة وسببا فى يأسها وعزها • ومن أجل ذلك يغتبط الشاعر فيعبر عن احساسه هذا بقوله :ـ

لا يزال الكتاب يهتف بالتو ... حيد فيكم والسنة النبويه
إنما المؤمنون في كل خطب ... إخوة والاخاء فيكم سجيه
فاذا ما طلبتم سالف المجد ... فقوموا بعزمة سلفيه
وانهضوا نهضة اتحاد وود ... واستجدوا العلائق الوديه
وانصروا راية الهلال فانتم ... نسل تلك العصابة البدريه

ولقد ساهم عبدالمحسن الكاظمي بقصيدة واحدة طويلة عنوانها (تحية الدستور)[٢٧] ، وفيها يعلن جذلا مسروراً بشائر هذا الدستور على الملأ الذى طلع عليهم طلوع الفجر ، وجاء اليهم يسعى كما يجيء الربيع ، ينفث أريجه الفواح ليعبق الدنيا بشذاه الندى • ثم يهتف الشاعر لهذا الدستور الذى رفرف علمه الخفاق فوق كل المنازل حاملا السعادة كل السعادة ، والحرية كل الحرية ، لأولئك الذين حرموا منها دهرا طويلا ، وعانوا كثيرا بسبب هذا الحرمان •

ويتطرق الشاعر بعد ذلك الى عهد عبدالحميد ، فصيف ظلمه وجوره ، ويشير الى ذلك الوهم الذى ركب رأسه فجعله مغروراً متجبراً ، لا تهمه ارادة هذه الشعوب وتطلعاتها الى الغد المشرق البسام ، بل مضى يكتم الافواه ، ويئد الحريات ويسوم الناس سوء العذاب • وحينما ضج الاحرار بالشكوى ، وطالبوا القائمين على الأمر باصلاح مرافق الدولة ، ومنح الحرية الى أبناء السلطنة ، لم يلتفتوا الى شكاواهم ، ولم يصيخوا الى نصائحهم ، فكأن الأمر لا يعنيهم في كثير أو قليل • ولماذا يعنيهم هذا الامر ، وجل ما كانوا يريدونه من مال وجاه وسلطة هو طوع بنانهم ، ورهن اشارتهم •

ولهذا ، كان طلوع فجر هذا الدستور هو بمثابة البلسم الشافي لكل تلك الادواء التي كان يشتكي منها هذا الجسم العليل ، كما أنه وحده الكفيل بأن يقضي على هذه المفاسد والمظالم والمباذل كلها ، وهو رهين ، بعد ، بأن يحقق للناس أمنهم وحريتهم • وهو يعني بالتالى ان حياة جديدة قد انسربت الى العثمانيين ، تحمل على أجنحتها الواسعة تلك الآمال الباسمة والاماني المشرقة ، التي كان يتغنى بها بعض الشعراء ، ويتطلع اليها بشوق اولئك الاحرار من الناس •

يقول الكاظمي في تحية هذا الدستور : ـ

لواك على كل المنازل خافق ... وذكرك في كل المحافل عابق
بكل فم تحلو وفي كل خاطر ... فلفظك سيال ومعناك رائق
صبونا لمرآك البديع كما صبا ... لمعشوقه عند الزيارة عاشق
ولما تبن إلا وهذا مصافح ... ترنحه البشرى وهذا معانق
طلعت طلوع الفجر ما فيك ريبة ... وجئت كما جاء الربيع المغادق
وعدت على الايام يا خير عائد ... كماعاديسقي عاطش الروض وادق

ويقول الكاظمي أيضاً في يوم اعلان الدستور فى شهر تموز : ـ

هـو العيـد أحيـوا ليلـه ونهاره ... وحيـوه بالبشـر الذى هو لائـق
وما مثل هذا العيد عيـد تجلـه ... جميع الورى أعداؤه والأصـادق
أيـوم الهنـا لا راعنـا بـك رائـع ... ولا طرقتـك المزعجـات الطوارق
رواقـك ممـدود وظلـك وارف ... وروضك مصقول ومجدك باسـق
علا فيك صوت الحق بعد خفوتـه ... وبات يرينـا الخصم كيف ينافق
اذا نام مخـلوق عن الحق أوسـها ... فللحـق رب لا ينـام وخـالق

ويتحدث الكاظمي عن مساوىء العهد الماضى فيقول :ـ

فكم ضاق بالاحرار قبلك منـزل ... فعدن وساعا فيـك تلك المضـايق
وكم من ظلام جره الظلم فانجلى ... وعاد سـنا ذاك الظـلام المطابق
تجاوبت الاقـلام من كـل جـانب ... وقـد أظهرت ما أبطنتـه المهارق
إذا بأمـور يبهت النطـق عندهـا ... وسـود فعـال هنّ لكن نواطـق
أمور اذا مرت عـلى السمع مجهـا ... وقـاء لمرآهـا المذمـم رامـق
يروح بهـا الوغـد اللئيـم كأنـه ... من الكبـر رب طوعه الأمر رازق
ويغدو بهـا الحر الكريم كأنـه ... من الضيم عبـد عق مولاه آبـق
إذا رن جنح الليـل فالقلب واجب ... أو افتر ثغر الصبح فالدمـع دافق
فكم أرغمت فيهـا أنوف وألجمت ... حلـوق بشكوى المستبد شـوارق
وماتت نفوس قبـل حين مماتهـا ... وشابت لهـا قبـل المشيب مفـارق
تولت وبادت دولـة الظلم وانمحت ... فلا رجعت تلك الامـور العلائـق

ومن ثم يمتدح القائمين على اعلان الدستور وخلع عبدالحميد فيقول :ـ

رعى الله يومـا انقذتنـا رجالـه ... ونحن حيارى في الهمـوم غوارق
وروت صدانا ديمـة لم تكـن لنـا ... ببارقـة لولا السـيوف البـوارق
ظبي دونها تنبـو الظبي وسـوابق ... كبت دون مجراها العتاق السوابق
يباهي بهـا محمود ظمـأى صواهلا ... فتصدر ريـا بالدمـاء بواشـق

وكلهم طلاب مجد تعاونوا على نيله والكون مصغ ورامق
بني المجد ان المجد رد بهاءه وعاودت ذات الشباب الغرانق
وان الثنايا الموصدات تفتحت على الرغم من أبوابهن المغالق
فلم يبق في وجه المطالب حاجب ولم يبق عن نيل المآرب عائق

والقصيدة طويلة وكلها على هذا النسق .

ولقد سرت هذه الفرحة الى فؤاد الشاعر خيري الهنداوى ، فاهتز لها طربا ، وتغنى بيوم السعد الذى عقد راية الافراح لتلك الاماني العذاب التي كانت تراود أذهان المصلحين ، فاذا هي اليوم حقيقة قائمة تؤكد وجودها وشخصيتها ، ولكن هذه الاماني لم تتحقق الا بحد السيف واستلال الصفاح من قبل هؤلاء الابطال الميامين الذين أرخصوا دماءهم وأرواحهم في سبيلها ، لأن فيها سعادة الأمة ، وعنوان عزها ومجدها . ولهذا لم يستطع الشاعر أن يكتم فرحته هذه ، وانما بادر الى نظم قصيدته (العيد والمعيد وعبدالحميد)[٢٨] ليعبر فيها مختالا عن فرحه وسروره بهذا الحدث العظيم ، ويقول في مستهلها :ـ

عقد السعد راية الافراح للأماني على جيوش النجاح
وبدا الشرق ضاحكا يسحب الـ ـذيل سرورا ببهجة وارتياح
رافعا راية الهلال ينادى مرحبا (بالرشاد) والاصلاح
لعبت فيه راحة المجد فاخـ ـتال سرورا كذاك شأن الراح
وأديرت عليه أقداحها فاهـ ـتزعجا لرنة الأقداح
واذا رمت شربها فغناء من صهيل حين استلال الصفاح
وضياء من البنادق في ليـ ـل من النقع مكفهر النواحي
جاعلا عودك المدافع والأر ض رياضا مغروسة من سلاح
فوق نهر يهدى اليك نشاطا من دماء النفوس والارواح
هكذا تشرب الكرام فان كنـ ـت كريما فلا تكن بالصاح

وهكذا صور الشاعر ، في هذه المعاني الجميلة ، مجد هذه الامة في عهدها السعيد بالراح التي تدار على الندامى ، ولكن شربها لا يستساغ الا على صوت السيوف وهي تتصافح ، وضياء البنادق وهي تطلق نيرانها في ذلك الليل المكفهر . ولقد أراد الشاعر أن يستكمل هذه الصورة فجعل من دوي المدافع عودا تنتشي على نغماته النفوس ، بل تزداد طربا وسروراً .

ولكن الفضل في هذا كله يعود الى ذلك الرجل الهمام ، محمود شوكت باشا ، الذى أبت نفسه شرب هذه الراح الا بين دوي هذه المدافع ، وصليل تلك السيوف فيقول :ـ

وتحقق من (شوكة) شأن هذ ... ى الراح لا شأن راحة التفاح
تلق أفتى الأنام فيها وأروا ... هم حديثا من الوجوه الصباح
أيها العيد زر هماما بقسطنط ... ين وانزل حيث الرحاب الفساح
وتحمل إليه مسك التهاني ... فهو أولى بنشره الفياح
أنت لولا المعيد ما كنت إلا ... في زوايا الخمول والأطراح

ويلتفت الشاعر بعد ذلك الى الى الدستور ، فيطلب اليه أن يأتي عبدالحميد ليسأله عما حل به من كرب وبلاء بعد ذلك العز والجاه ، وهنا يتصور الشاعر أن هذا السلطان قد ذاب ولا شك من شدة الحزن والألم ، فأضحى محطم الجسم ، ذليل النفس ، داعياً على نفسه بالموت للخلاص من وطأة هذا البلاء ، وهذا هو شأن كل ظالم مستبد يلقي الهوان وأي هوان : ـ

وأت عبدالحميد وأسأله عما ... حل في رأسه بهذا الصباح
تلق جسماقد ذاب من شدة الحـ ... ـزن ونفسا فاضت من الأتراح
تارة يلعن الزمان وطوراً ... يرسل الدمع من جفون قراح

ثم يتوجه الشاعر بالخطاب الى عبدالحميد فيقول :ـ

أيها الشيخ هل لك اليوم غير المـ ـوت قل لي من منيـة واقتراح
مت حزينـا فهكـذا يصنع الله بمن يستبيح غـير المبـاح

ومن بين اولئك الشعراء الذين حيوا الدستور وهتفوا باسمه الشاعر حسن العذارى • وفى قصيدته التي نظمها فى هذه المناسبة تلوح فرحته بهذا المولود الجديد فيخرج الى الناس ليزف بشائره اليهم ، ويعلن سماته وخصائصه ، ويؤكد أنه ما جاء الا من أجل تحقيق العدالة والمساواة بين الناس ، ولهذا يحثهم الشاعر على التمسك به ، والالتفاف حول رايته الخفاقة ، وينصحهم بألا يبالوا بتلك الاشاعات التى يروجها الاعداء للقضاء عليه • وفي هذا يقول :ـ

بشرى البلاد عن العباد بعصره قطع الفساد فلا يعاد فيشغب
أو ما ترى الدستور نفذ حكمه وبه تمزق ليل ظلم غيهب
برح الخفا وضح الصفا سنح الوفا بزمان من هو للسعادة كوكب
فترى العدالة من لدنه أشرقت مثل الغزالة ضوءها لا يحجب
ولرب قوم انكرتها عن عمى وتوغلت بضلالها تتكبكب

ومن ثم لا ينسى الشاعر أن يدلو هو الآخر بدلوه ، فيمدح السلطان الجديد ، ويطري صفاته ، ويسبغ عليه الفضائل فيقول :ـ

بك يا أمير المؤمنين تبسمت أيامنا فلهن ثغر أشنب
وبك الرعية بالسوية حكمها بحواضر وسواهر مترتب
وبجسمك الانصاف كان عزيزه لا تثنى عنه ولا تتقلب
لله درك من مليك حازم لرفاهه بمعاشنا متأهب(٢٩)

وشارك الشاعر عبدالمطلب الحلي في هذه المناسبة التاريخية ، فنظم أكثر من قصيدة يناصر بها هذا العهد الدستورى الجديد ، ويعلن حبوره وسعادته بالمبادىء التى جاء بها هذا الدستور • كما لا يخفى سروره بزوال

الطاغية عبدالحميد • وقد هاجم في شعره انصار الاستبداد الحميدى وندد بعهدهم ، وأشاد بالدستوريين الذين أطلقوا الناس من إسارهم ، وجعلوهم احرارا متساويين في الحقوق والواجبات • وقد ضمن الشاعر فى شعره بعض هذه المفاهيم الجديدة التى شاعت بوضوح إثر هذا الانقلاب كالعدل والمساواة والحرية والدستور والوطنية وما اليها • ولقد بدا على الشـــاعر أنه كان خائفاً فزعاً من خيال عبدالحميد لعظم ما عاناه الناس من استبداده وبطشه • فكأن الشاعر لا يزال غير واثق من أن عبدالحميد قد ولى الى غير رجعة ، وأن عهده قد زال الى الأبد ، يقول :ـ

قلا النوم خوفا أن يروع جنابـه ... خيال عليه منك بالطيف هاجـم
وخافك يقظانا عـلى غيب سـره ... كأنك خلف الغيب بالسر عـالم
فلم يهنـأ العيش اللذيذ بيقظـة ... ولا التذ في طعم الكرى وهو نائم
يمثلك الخـوف المريع لعينـــه ... كأنك شخص بين عينيه قـــائم
يراك على بعد المزار ابن غابـــة ... يواثبه في دســـته ويصـــادم
فتأخذه خـوف انتقامك رهبـــة ... تجف لهـا اوداجـه والغـلاصم
ولو كان حرا ما استرق بجوره ... رقابا لها الاسلام بالعتق حـاكم
ولا نقض العهد المؤكـد غـدره ... فحلت دماء واستبيحت محـــارم
ولا أصبحت بالقيد ترسف ارجل ... برتها فأدمتهـا القيود الأداهـــم

واذ يفرغ الشاعر من عرض هذه الصورة ، يتوجه الى رجال الانقلاب الذين أبوا أن يذعنوا لهذا الظلم والاستبداد ، ويستسلموا لارهاب السلطان وبطشه ، فيشيد بدورهم العظيم في القضاء على هذا السلطان ، ويمتدح عملهم الذى هز الناس هزاً عنيفاً ليوقظهم من سباتهم الذى كانوا فيـــه سادرين ، ويبشرهم بأن عهدا جديدا قد أضاء الخافقين وبدد تلك الظلمات التي كانت تغشى القلوب والابصار :ـ

فهبت رجال من سلانيك أيقظت ... الى العدل عين الحزم والحزم نائم
رجال هم الأسد الضراغم صولة ... لدى الروع لا أسد العرين الضراغم
دعوا للتساوى دعـــوة وطنيـــة ... أجاب لهم منهـا جهول وعـالم
فما ضرهم أن أنعم الله بالهدى ... عليهم بهـا أن الخليفـة ناقـــم
تعجل لمـا ردها نقمـــة بهـــا ... تقهقر عنـه النصر والنصر قـادم
فما منعت حزب التساوى حصونه ... ولا دفعت أحـرازه والتمـــائم
ولم يبق من تلك العروش وان علت ... بناء سوى الآثار فهـي علائـــم
ترجل عنها صاحب التاج واغتدى ... ترن بهاتيك القصور الحمائـــم

وقد ختم هذه القصيدة الطويلة بمدح السلطان (محمد رشاد) ، ومنها هذه الابيات : ـ

وقام بها داعي الرشـاد محمـد ... دليلا لطرق العدل إن جار ظالم
أضاء بمبيض من الرشد قد جلا ... من الملك وجهاً سودته المظـالم
به أضحت الأيام تجلو وجوهها ... وثغر الليالي وهو أشنب باسم (٣٠)

ولعل من الطريف أن نذكر أن الشاعر الحلي كان قد نظم قصيدة يمدح بها السيد محمد القزويني حين أبرق الى السلطان عبدالحميد يهدده باعلان الثورة اذا استمر على معارضته الحكم الدستوري ، منهـا هذه الابيـــات : ـ

ولكـــم قمت مقامـــا دونـــه ... ناهض العزمة عـن عجـز قعـد
مصلتـاً منـــك ولكن عزمـــة ... لم تـدع في حدهـا للسيف حد
عزمة سدت مسد الجيش قـــد ... ضربت دون مسيل الجور سـد
مذبهـــا أبـــرق للجبـار فـي ... مرعـد هـدّ قـــواه فارتعـــد
منزلا فـي قصـــره صاعقـــة ... أصبحت أركانـــه منهـا تهـــد
أنزلته صاغـــرا عن دســـته ... بعد ما حك السهى منه كتد (٣١)

كما ساهم الشاعر عبدالعزيز الجواهري بقصيدة واحدة عنوانها (ملك السجن)[٣٢] وقد صور فيها حال عبدالحميد بعد أن خلع من عرشه • ثم عرض هو الآخر لجوره وظلمه ومباذله ، وردد نفس المعاني المألوفة التي طرقها معظم الشعراء الذين نظموا فى هذه المناسبة • ومطلع القصيدة هو : ـ

بعيشك كم تحن الى السرير وكم ترنو بطرفك للقصور

وفيها يقول مشيراً الى الانقلاب الذى قضى عليه :ـ

أتاك نذير يلدز مستطيراً وكنت تظنه وجه البشير
يخاف الطفل من رؤيا أبيه وتخشى المرضعات من الحجور
لقد عبر النجوم إليك جيش بغير سراه في الشعرى العبور
لقد ذعرت به الانفاس حتى كأن الجسم يرصد بالضمير
يسد الجو منه غبار نقع ويقذى دونه طرف البصير

ومن ثم يتعجب من تقلب الزمن ، فبعد أن كان عبدالحميد يرفل في أثواب النعيم والترف اذا هو اليوم أسير أحزانه وشقائه • وبعد أن كان عبدالحميد يملك رقاب الناس ، اذا هو اليوم لا يستطيع أن يخلص نفسه من قيود الاسر وأصفاد الذل • وانما كان سبب هذا كله أنه طغى وتجبر، وجازى الناس بالشر ، وحجب عنهم الخير ، والى هذا يشير بقوله :ـ

أراك أسير أحزان وقيد وكنت أراك ترسف في السرور
وقد كنت الأمير على السرايا فكيف رسفت في قيد الاسير
غريب لو جزيت الخير لكن جزيت الشر يا شر الدهور
لقد أوعزت صدر الجند حتى أراك الدهر عاقبة الغرور

وهكذا يتضح لنا ، من خلال هذه الصور المتلاحقة التي عرضنا لها ، ان هؤلاء الشعراء لم يذرفوا دمعة واحدة على السلطان عبدالحميد على

ما أصابه من ضر ، ولم تأخذهم به الشفقة على ما ناله من بلوى وشقاء ، بل هم شهروا سيوفهم عليه ، وسلقوه بسهامهم الحادة ، وطعنوه بشعرهم ، كما مزقوا تلك الصورة الجبارة التي كان يبرز من خلالها وهو في أوج عظمته وجبروته . بل حتى أولئك الشعراء الذين كانوا يتقربون اليه بالامس ، ويشيدون بعظمته ، عادوا فانقلبوا عليه ورأوه شرا خالصا ، ثم ما لبثوا أن بدأوا يرمونه بالنصال تلو النصال .

« المراجع »

(١) ألما وتلن : عبدالحميد ظل الله على الارض ، ص ٨٨ ، ترجمة راسم رشدى ، دار النيل للطباعة ، ١٩٥٠ .
(٢) المصدر السابق ، ص ١١٥ وما بعدها .
(٣) سليمان فيضي : فى غمرة النضال ، ص ٦٠ . بغداد ١٩٥٢
(٤) ساطع الحصري : البلاد العربية والدولة العثمانية ، ص ١٠٦ ، ط٢ ، دار العلم للملايين ، بيروت ، ١٩٦٠ .
(٥) سليمان فيضي : فى غمرة النضال ، ص ٦٥ .
(٦) أنيس المقدسي : الاتجاهات الادبية فى العالم العربي الحديث ، ص ٣٤ ، ط١ .
(٧) لويس شيخو : تاريخ الآداب العربية في القرن التاسع عشر ، ص ٣٧ ، ٣٨ ، مطبعة الآباء اليسوعيين ، بيروت ، ١٩٢٦ .
(٨) علي ظريف الاعظمى : مختصر تاريخ بغداد ، ص ٢٧٤ ، مطبعة الفرات ، بغداد ١٩٢٦ .
(٩) الزهاوى : الكلم المنظوم ، ص ١٦٠ ، دار مصر للطباعة ١٩٥٥ .
(١٠) أبو المحاسن : الديوان ، ص ٩٣ – ٩٥ ، مطبعة الباقر ، النجف الاشرف ، ١٣٨٣هـ .
(١١) الزهاوى : الكلم المنظوم ، ص ١٥٩ وما بعدها .
(١٢) المصدر السابق ، ص ١٦١ وما بعدها .
(١٣) الزهاوى : الديوان ، ص ٢٩٧ ، المطبعة العربية بمصر ١٩٢٤ .
(١٤) الرصافي : الديوان ، ص ٣٩٠ .
(١٥) رؤف الواعظ : معروف الرصافى ، حياته وأدبه السياسى ، ص ١٤٢ ، دار الكتاب العربى بمصر ، ١٩٦١ .
(١٦) لويس شيخو : تاريخ آداب اللغة العربية فى القرن التاسع عشر ، ص ٣٧ ، ٣٨ .

(١٧) الرصافي : الديوان ، ص ١٦١ .
(١٨) الشبيبي : الديوان ، ص ٥٢ ، مطبعة لجنة التأليف والنشر ، القاهرة ١٩٤٠ .
(١٩) مجلة الاعتدال لصاحبها محمد علي البلاغي ، السنة الاولى ، العدد السابع ١٩٣٥ .
(٢٠) الدكتور أرنست. أ. رامزور : تركيا الفتاة وثورة ١٩٠٨ ، ص ١٥١ ، ١٥٢ ، ترجمة الدكتور صالح أحمد العلي ، مكتبة الحياة بيروت ، ١٩٦٠ .
(٢١) الماوتلن : عبدالحميد ظل الله على الارض ، ص ١٩٢ .
(٢٢) الرصافي : الديوان ، ص ٣٨٤ .
(٢٣) يشير الى ماحل بجريدة (طنين) اذ ذاك وبمحل ادارتها من الهدم والتخريب فى تلك الحادثة .
(٢٤) الرصافي : الديوان ، ص ٣٨٧ .
(٢٥) أبو المحاسن : الديوان ، ص ١٠٨ وما بعدها .
(٢٦) المصدر السابق ، ص ٢٧٧ .
(٢٧) عبدالمحسن الكاظمي : الديوان ، ص ١٢٥ وما بعدها ، المجموعة الثانية .
(٢٨) الدكتور يوسف عزالدين : خيري الهنداوي ، حياته وشعره ، ص ٢١٢ ، مطبعة لجنة البيان العربي بالقاهرة ، ١٩٦٥ ، والمقصود (بالمعيد) الذى أعاد العيد ـ عيد الحرية ـ محمود شوكة باشا (انظر هامش الصفحة أعلاه) .
(٢٩) علي الخاقاني : شعراء الحلة أو البابليات ، ج ٢/ص ٦١ ، ٦٢ ، المطبعة الحيدرية ، النجف ١٩٥٢ .
(٣٠) عبدالمطلب الحلي : الديوان (مخطوط) .
(٣١) المصدر السابق .
(٣٢) رفائيل بطي : الأدب العصري فى العراق العربي ، ج٢/ص١٦٦ ، المطبعة السلفية بمصر ١٩٢٣ .
وعلي الخاقاني : شعراء الغري ، ج٥/ص ٤٥٥ .